

## طريق المحبة الصعبة - ١

### الميتروبوليت جوزيف

### نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

#### مدخل

في آذار ٢٠٢٣ صدر كتاب للميتروبوليت جوزيف (بوب) مطران أبرشية أوروبا الغربية والجنوبية في الكنيسة الرومانية، بعنوان "طريق المحبة الصعبة"، سوف تصدر ترجمته على فصول في الأعداد المقبلة من التراث الأرثوذكسي.

Source: Le Metropolitte Josphe. La Voie du Difficile Amour. Edition Apostolia. Paris. 2023.

#### مقدمة الكتاب

من بين الوسائل التي تستخدمها الكنيسة اليوم لنقل الإيمان وحقيقة الإنجيل هي الكلمة المكتوبة. إن ما يختبره الإنسان مع الله، ومع نفسه ومع إخوانه البشر، بل وأيضًا مع الخليقة بأكملها - عمل الله الثالث - يُنقل إلى مؤمني الكنيسة والعالم من خلال الكلمة المكتوبة التي، مع مرور السنين، تشهد لثباتنا في الإيمان ولبقاءنا في هذا العالم.

الإيمان هو عطية الله لكل واحد منا، لكن الله لا يستطيع أن ينقل هذه العطية إلينا دون تعاوننا الكامل في هذا العمل. ولكن علينا واجب أن نشهد لإيماننا أمام العالم، لنصبح رسل الرب في كل الظروف.

إن شهادة حياة الإيمان التي نعيشها في عالم اليوم، والتي تنتقل من خلال الكلمة المكتوبة، تساعدنا على تقوية إيماننا، وعلى أن نؤكد لأنفسنا أننا لسنا الوحيديين الذين يعيشونه، وأن ندرك أنه يسكن الكثير من الناس، حتى لو لم تكن هذه الهبة لدى الجميع. إن جماعات الرعايا، الرهبان، الأسرة، مكان العمل، المدرسة، الشارع والمجتمع الذي نعيش فيه تصبح أماكن مهمتنا الرسولية بامتياز. ومع ذلك، فإن التواصل من خلال الكتابة يحتفظ بدور مميز: فهو يساعد البعيدين والذين يعيشون قريباً على حد سواء على فهم حياة الكنيسة بشكل أفضل، وفي هذه الحالة حياة هذا الجزء من أوروبا.

لهذا السبب نحاول أن نعبر بالكلمات عن عمل ابن الله القائم في العالم وفي قلوب البشر.

الميتروبوليت جوزيف

باريس، آذار ٢٠٢٣

## تعلّم كيفية تلقي كلمة

النفس، إذ لها قسم (جانِب) روحي، عندما تسمع كلاماً يحمل قوة روحية تتقبله بحرارة. (القديس اسحق السرياني. نسكيات. المقالة الأولى. ص. ١٨. منشورات النور. ١٩٨٣)

من المهم أن ندرك أهمية الكلمة بشكل عام، كما أي كلمة نقولها، وأيضاً أهمية كل كلمة يمنحنا إياها الله. ندرك الآن أحياناً مدى صعوبة سماع الكلام، لأننا نتواصل مع بعضنا البعض من خلال الكلام. يكتشفنا الآخرون من خلال الكلام، كما نكتشفهم بدورنا من خلال كلامهم. ليس من القليل أن يُسمى "كلمة الله" هكذا، وأن يُدعى ابن الله بالكلمة الإلهية: فمن خلال الكلمة يعلن الله نفسه لنا، كونه هو نفسه ابن الله، الكلمة المتجسد.

يخبرنا القديس إسحق السرياني "ما ألدّ الأقوال الإلهية عند النفس الفطنة" (المقالة الخامسة والأربعون، ص. ١٧١)، ولكن من الصعب جداً على عالم اليوم أن يسمع كلمة الله. إنها لفضيحةٌ إلى حد ما. وكما أرى مدى صعوبة سماع كلمة الله بعمق في أعماقي، فكذلك أتفهم كم يصعب على الآخرين سماعها في أعماقهم. من الشائع أن تُفهم كلمة الله المنطوقة بشكل مختلف تماماً بين شخص وآخر؛ كل واحد منا يسمع شيئاً مختلفاً جزئياً أو كلياً. فماذا يمكننا أن نقول إذن عن كلماتنا عندما نقلها للآخرين! نقول شيئاً ونفهم شيئاً آخر. وتسبب هذه الظاهرة الكثير من الألم والتناقض والانزعاج. نحن لا نفهم بعضنا البعض.

– هل قلت أشياء غير مفهومة؟ ذلك لأن الانطباع لدينا كان بأننا نتحدث لغة بعضنا البعض. ثم ندرك أكثر أن الكلمة في الروح هي شيء مختلف عن ما يصدر من الروح الإنسانية. إن الكلمة المملوءة بالروح القدس، في لحظة معينة، نسمعها جميعاً. ولكن نادراً ما يكون ذلك في نفس الوقت. فمن النادر أن يقبل جميع أفراد الأسرة الكلمة بالروح في وقت واحد. غالباً ما تعيش العائلات في بلاد بابل حيث لا نتفق. نتحدث عن شيء ونسمع شيئاً آخر.

فكيف يمكننا إذاً أن نفتح قلوبنا للفهم وللسماع الصحيح للكلمة؟

في علاقتي مع أخي، يجب أن أتعلّم الاستماع. من النادر أن نأخذ الوقت الكافي للنظر إلى أخينا ونفكر أنه في هذه اللحظة بالذات لا يوجد سوى هو وأنا، وأني أستمع إليه فقط، ولا أرى أي شيء آخر حولي، وأني أستطيع الاستماع إليه كما لو أنه ما من شيء آخر موجود في العالم. عندها فقط أستطيع أن أسمعه بالحق، بالروح.

ويقول لنا القديس إسحق أيضاً: "هذا لا يعني أن كل شيء يُقال بطريقة روحية ويحتوي في الوقت نفسه على قوة عظيمة يمكنه أن يوقظ كل إنسان ويدعوه إلى التأمل. إن الكلام عن الفضيلة يحتاج إلى قلب فارغ من الأرضيات ومن التحدث عنها" (الأولى، ص. ١٨).

في لقائي وجهاً لوجه مع الرب، تقدر الصلاة أن تفتح قلبي لمعرفة الله، كما لمعرفة من أنا. ليست الصلاة مجرد حوار مع الله، بل هي انتباه موجّه بالكامل نحو الله، وهذا الاهتمام هو أيضاً كلام. في الصلاة أوصول نفسي إلى الله، والله أيضاً يتواصل معي من خلال الكلمات.

"الابتعاد عن أمور الدنيا، والبقاء في ناموس النور، أي السبل المستقيمة المقدسة، كما سقاها المرئم وأشار إليها بالروح، هما أفضل أسس الفضيلة" (الأولى، ص. ١٥).

ماذا سيقول لقلبي الطفل الإلهي المولود من بطن العذراء؟ ماذا سيقول لي من يحمل عني عار العالم، يتلقى الضرب والبصق والشتائم؟ ماذا سيقول لي من مات معلقاً على الصليب؟ ماذا يقول لي من دفن بين الأموات ونزل من أجلي إلى الجحيم؟ ماذا سيقول لي ذلك الذي قام من بين الأموات محطماً الأبواب المغلقة على الحياة إلى الأبد؟ ماذا سيقول لي من قدّم جنبه المطعون لتوما؟ ماذا يقول لي من يرسل لنا الروح القدس من الآب؟ سوف يخبرنا أن هذا الروح نفسه هو من سيتحدث إلينا عنه (أنظر يوحنا ١٦).

هذا الاستعداد لانفتاح القلب، وهذا التأمل بما يُسمع داخلي، وهذا التوتر اليقظ أو الاهتمام المرغوب هو الطريق الذي سيسمح لي أن أسمع بالروح ما سيقوله لي أخي من قلبه، وما سوف ينفخه الروح في قلبي.

### نار الورد

"فلنترنم أيها الإخوة بالسنة التلاميذ، لأنهم لم يأسروا جميع الناس بكلمة رائعة، بل بقوة إلهية" (البندكستاري).

مع حلول الروح القدس، ينال الرسل والتلاميذ القديسون، ونحن معهم، عربون تقديس الإنسان والعالم. نحن حصلنا على من يرشدنا إلى معرفة الله-الإنسان، يسوع المسيح، وكذلك أسراره الخلاصية.

فليطرح كل منا الآن، أيها الإخوة، خوف نفسه جانباً، ولتظهر المحبة للذي رُفِع، إذ إنه أحب الذين دعاهم كثيراً، لأن كل ما تنبأ عنه قد تممه الآن، وقد صنع كما قال. لماذا نبقي خائفين من النار التي لا لهب فيها؟ لننظر إلى هذه النار كالورد، إذ هذا هو الواقع: قد وضعناها على رؤوسنا كالأزهار التي توجنا بها الروح القدس وجعلنا وزيننا (البندكستاري).

بنعمته يملؤنا الروح القدس بالفرح عندما نستغني عن الأفراح الكاذبة التي تأتي من الخطيئة. إذا طلبناه وقبلناه، فإن الروح القدس ينير نفوسنا لتتبع البر الذي يأتي من ذبيحة المحبة الحقيقية، أي صليب المسيح، العدالة التي يعتبرها العالم ظلماً لأنها تلزمنا بالتضحية، لأنها تتطلب تقديم حياتنا من أجل قريبنا.

عندما نستدعيه، يعزّي الروح القدس نفوسنا المجروحة بسبب الخطيئة، أو ضعفنا أو عجزنا، أو الغضب أو الإحباط، أو الشر، أو النسيان، أو مجرد التجربة. فهو يساعدنا على النهوض والنمو والبلوغ إلى هدفنا الذي هو المسيح. إنه يعلمنا أن نتحدث إلى الله، أولاً بهذه الهمسات غير المفهومة التي يميّزها هو وحده، وبعد أن تكبر، يعلمنا شيئاً فشيئاً اللغة الروحية وأسرار الملكوت الجوهريّة التي لا تنضب: فهو يكشف لنا أننا نستطيع الاتحاد بالله. بالواقع، عندما نلتقي بقديس، نحسّ فيه بحضور الروح الذي يدعونا جميعاً إليه ليعزينا ويقدمنا.

"لا يرى بالعين، بل يرى بالإيمان. لا تمسكه الأيدي، بل تمسه قلوب المؤمنين، لأنه الروح القدس" (البندكتاري).